الملفُّ الثاني

سِلْم المعاشرة بالمعروف

يُخَطِّط الرجل لمستقبل حياته ويُمَنِّي نفسه بكثير من الأمنيات التي لا تقف عند حد، بل تخترق حدود الزَّمان والمكان، ويسعىٰ لتحقيقها بكافَّة الطُّرق والوسائل، وعندما تتحوَّل الأحلام إلىٰ حقائق، والصور المُسَجَّلة في الخيال إلىٰ واقع لا يهدأ ولا يستقر بل يظلُّ في صراع مع الحياة حتىٰ يواري جسده التُّراب.

وعشُّ الزَّوجية أمنية من الأمنيات يضحِّي من أجله بالغالي والنفيس، بالجهد والمال، وفي النهاية قد تأتيه السَّعادة بكل ألوانها وأشكالها راكعة تحت قدميه، فتظلُّ أسهم حياته في ارتفاع لا تنخفض مؤشراتها أبدًا، بل كلما حاولت أن تنخفض أعاد إليها ماء الحياة فعادت كما كانت؛ وذلك لأنه عرف حقوقه وواجباته والتزم بها ولم يحد عنها، وربما ألقىٰ بنفسه في مصير مجهول فتحدث الانتكاسة التي تطيح بكل آماله وأحلامه ونجاحاته فيرىٰ سرابًا يظنُّه شرابًا، ويظلُّ طول عمره يتمنَّىٰ السَّعادة، ولا وجه للتمنِّي في عالم لا يعترف إلا بالحقيقة والواقع؛ وذلك لأنه ترك الحياة الزَّوجية تسير كما تسير فكانت هذه هي النَّتيجة.

لذلك فعلامات المرور واضحة المعالم والسمات تناشد ربَّ الأسرة: قف وتأمَّل واقترب من زوجتك وتعرَّف علىٰ عالمها، ودعك من عالم الغموض والإبهام الذي تعيش فيه ويسيطر علىٰ شخصيتك، وكن لها كتابًا مقروءًا، واعرف ما لك وما عليك حتىٰ تعبر بأسرتك إلىٰ طريق الأمان، وتحيا في عالم من السِّلْم والسَّلام والاطمئنان. وعالم السِّلْميَّة الأسريَّة يتحقَّق في هذا المبدأ القرآني الذي وضعه ربُّ العباد ﷻ دستورًا لبناء الكيان الأسري المسئول عنه ربُّ الأسرة، ليس شعارًا أو ترديدًا لعبارات لا أصل لها بل هي واقع حيٌّ، لا يقف مع همزة وباء أو جميع حروف الهجاء في جميع تراكيبها -أقصد مشكلات الحياة الزوجية- بل تجده يدًا حانية، وقلبًا عظيمًا، وشمسًا مشرقة، بل قل بردًا وسلامًا .﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

ولفظة المعروف هي التي تجسِّد بدقة ووضوح حقيقة العلاقة الزوجية أبلغ تجسيد، وتصفها أبلغ وصف لن تجد في معاجم اللغة بكافَّة أشكالها لفظة أسمىٰ وأرقىٰ منها تصلح لأن تكون أساسًا لبناء الأسرة المسلمة.

و«المعروف: هو ما لا ينكره الشَّرْع والمروءة، والمراد ههنا النَّصفة في القسم والنَّفقة، والإجمال في القول والفعل. وقيل: المعروف أن لا يضرَّ بها ولا يسيء الكلام معها ويكون منبسط الوجه لها، وقيل: هو أن يتصنَّع لها كما تتصنَّع له»[1].

لذلك نهمس في أذن الزوج ونقول له إن من «رجاحة العقل ونضج التفكير توطين النفس علىٰ قبول بعض المضايقات، والغضِّ عن بعض المنغِّصات، والرَّجل وهو ربُّ الأسرة مطالب بتصبير نفسه أكثر من المرأة، وقد علم أنها ضعيفة في خَلقها وخُلُقها، إذا حوسبت علىٰ كل شيء عجزت عن كل شيء، والمبالغة في تقويمها يقود إلىٰ كسرها، وكسرها طلاقها ... فالاعوجاج في المرأة أصل الخِلقة فلابد من مسايرته والصَّبر عليه. فعلىٰ الرجل ألا يسترسل مع ما قد يظهر من مشاعر الضيق من أهله وليصرف النظر عن بعض جوانب النقص فيهم، وعليه أن يتذكَّر جوانب الخير فيهم وإنه لواجد في ذلك شيئًا كثيرًا ... وكيف تكون الرَّاحة؟ وأين السَّكن والمودة؟ إذا كان ربُّ البيت ثقيل الطَّبع، سيىء العشرة، ضيق الأفق، يغلبه حمق، ويعميه تعجل، بطيء في الرضىٰ، سريع في الغضب، إذا دخل فكثير المنِّ، وإذا خرج فكثير الظَّنِّ، وقد علم أن حسن العشرة وأسباب السَّعادة لا تكون إلا في اللين والبعد عن الظُّنون والأوهام التي لا أساس لها، إن الغيرة قد تذهب

(1) روح المعاني 2/ 625.

وينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج. تحقيق د. عبدالجليل شلبي 2/ 30 - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثانية 1418هـ-1997م، والكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري 3/ 491، 490 - دار الكتاب العربي، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). راجعه وضبطه وعلق عليه د. محمد إبراهيم الحفناوي 3/ 90 - دار الحديث - القاهرة - 1426هـ-2005م، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي 3/ 570 - دار الفكر - 1421هـ-1992م.

ببعض النَّاس إلىٰ سوء ظَنٍّ، يحمله علىٰ تأويل الكلام والشكِّ في التصرفات، مما ينغِّص العيش ويقلق البال من غير مستند صحيح ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ [الطلاق: 6][1].

المشكلة في عالمنا المعاصر أن الحياة تسير بدون عنوان في كثير من البيوت المسلمة فتظل الحروف عارية من التنقيط، فليس هناك مبدأ متفق عليه، أو أصول يجب الالتزام والوفاء بها، أو عناوين عامَّة لأسلوب الحياة، لذلك تجد عالمًا كبيرًا من المتاعب والعقبات التي لا حدود لها.

لذلك كان لابد من تفعيل مبدأ (المعاشرة بالمعروف)، والمعروف الذي يقدِّمه الزوج ليس مسألة رياضية مستحيلة الجواب، أو عملية هندسية معقدة الأبعاد بل هي مشاعر وأحاسيس إنسانية تقرِّب بين عالم الرِّجال والنِّساء وتصهرهما في بوتقة واحدة أو عالم واحد، فيه «حسن الأقوال، وجميل الأخلاق، بإكرام الزَّوجة، والتحبُّب إليها بالثناء الحسن والهدايا الجميلة، ومناداتها بأحب الأسماء إليها، والتجمُّل لها، وإكرام أهلها، والصبر علىٰ ما يصدر منها والتجاوز عن هفواتها، وتجنُّب أذاها بالكلام وغيره، ومشاركتها في الحوار والحديث، واحترام رأيها، وملاطفتها والمزاح معها، وإعانتها في شئون الحياة وتربية الأبناء، وألا يذكر محاسن غيرها من النساء أمامها»[2].

وعندما نوجِّه الخطاب للزوج، فهذا يعني أنه «يقع علىٰ الزوج عبء المعاشرة بالمعروف أكثر من الزوجة لسببين:

أحدهما: أن الزوجة تعتبر أمانة في يده، فهو مطالب بالحرص علىٰ هذه الأمانة وبذل كل جهده في صونها والحفاظ عليها.

---

(1) البيت السعيد ص9: 12.

(2) الثقافة الإسلامية (المستوىٰ الثالث) د. فيصل سعيد بالعمش وآخرون ص68 - دار حافظ للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى 1431هـ-2010م.

ثانيهما: أن النساء خلقن من ضلع أعوج (أي أن غلبة الانفعال في طبعهن تجعلهن يتجنبن الطريق السَّوي في المعاملة)، ومقتضىٰ ذلك أن يكون الزوج من الحكمة والكياسة والمرونة وسعة الصدر وسعة الأفق ما يستطيع به كبح جماح هذا الانفعال حتىٰ لا يذهب مذهب الشَّطط، وتقويم هذا العوج حتىٰ تقل دواعي الخلاف والانحراف ...»[1].

والحياة الزوجية قاسم مشترك بين الزوجين، أمرنا فيها الزوج بتفعيل مبدأ المعاشرة بالمعروف وأوجبناه عليه، وكذلك الزوجة أيضًا لابد من أن تهيىء نفسها لاستقبال هذا المبدأ ووضعه في أولويات حياتها الأسريَّة اعترافًا منها بحقٍّ وفضل زوجها، والذي ينبغي أن تعترف به سرًّا وعلانية بكل فخر وعزَّة أنها زوجته وأنها سعيدة بهذا الرِّباط الذي يربط بينهما، فلا تحجر علىٰ آرائه، ولا تهينه أمام أبنائه، ولا تذكره إلا بكل خير، فالرجل إذا فقد كرامته وهيبته في بيته انهار بنيان الأسرة، «فلتعلم أن السَّعادة والمودة والرَّحمة لا تتم إلا حين تكون ذات عفَّة ودين، تعرف ما لها فلا تتجاوزه ولا تتعداه، تستجيب لزوجها؛ فهو الذي له القوامة عليها يصونها ويحفظها وينفق عليها، فتجب طاعته وحفظه في نفسها وماله، تتقن عملها وتقوم به وتعتني بنفسها وبيتها، فهي زوجة صالحة وأم شفيقة، راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، تعترف بجميل زوجها ولا تتنكَّر للفضل والعشرة الحسنة ... فلابد من دَمْح[2] الزَّلات والغضِّ عن الهفوات، لا تسيء إليه إذا حضر ولا تخونه إذا غاب. بهذا يحصل التراضي وتدوم العشرة ويسود الإلف والمودة والرَّحمة»[3].

فإذا أيقنت الزَّوجة وسلَّمت بهذه الحقوق والواجبات سَلِمت حياتها من كل سوء، وتوارىٰ عنها كل مكروه، وعاشت في جنَّات الخلد أرضًا وسماء، فـ «المرأة ذات الدِّين تكون حريصة دائمًا علىٰ إحسان العشرة بزوجها إرضاءً لربها، فلا تفعل

(1) الأسرة (التكوين ـ الحقوق والواجبات) ص187، 188.

(2) **دَمَّح الرجل ودَبَّح**: طأطأ رأسه، أو طأطأ ظهره وحناه. لسان العرب (د م ح) 2/ 1420.

(3) البيت السعيد، ص12: 14.

ما يكرهه أو يسيء إليه، ولا تحدِّثه بما يغضبه أو يثير نفسه. وغالبًا ما تعرف المرأة مداخل زوجها النفسية وتتحسَّس الطريق إلىٰ قلبه وتهتدي إلىٰ مفتاح شخصيته، فهي بمعاشرته أصبحت تدرك بخبرتها ما يحزنه وما يسره، وما يفتح قلبه لها وما يغلقه عليها، وتستطيع إذا ما عرفت ذلك أن تبادر إلىٰ إدخال السرور عليه عندما تحسُّ أن هناك ما يغضبه أو يعكِّر صفوه أو يكدِّر خاطره، فلمسة حنان قد تذهب عن الزوج ما ألم به من شكاة أو كلمة إطراء وتمجيد قد تطلقه من قيد الهمِّ والحزن وتدفعه لتفكير جاد يصل به إلىٰ حلٍّ حاسم لمشكلاته وعلاج ناجع لآلامه، وابتسامة مشرقة قد تضيء أمام عينيه الطريق بعد أن اختلطت معالمه وتوغرت مسالكه وتعذر السير فيه»[1].

وعلىٰ وجه الإجمال فإن مبدأ المعاشرة بالمعروف في حقِّ الزَّوجين هو العنوان الرئيس لقوام الحياة الزوجية تبدأ خيوطه وتمتد في «البعد عما ينفِّر والسعي إلىٰ ما يرضي، والتعاون علىٰ دفع الشَّرِّ وجلب الخير والإخلاص في آداء الواجب مع العطف والتَّسامح والتلطُّف في الحديث واحترام الرأي وإشاعة الأنس، وما إلىٰ ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجيَّة من العيش في جو صحي خالٍ من أسباب النزاع والشِّقاق وعوامل الضِّيق والكآبة. فكل الأمور الصغيرة يمكن التجاوز عنها فلا يحاسب عليها أحد من الزوجين صاحبه، وإذا كان هناك أمر ذو بال فيمكن التغلُّب عليه في الحال بالتَّفاهم الكامل والصَّراحة التامَّة والتراحم المنشود»[2].

وبعبارة جامعة أوجز القرآن الكريم حقيقة هذه العلاقة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]، «أي: وللنساء علىٰ بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة»[3].

---

(1) الأسرة (التكوين . الحقوق والواجبات) ص188، 189.

(2) السابق ص186، 187.

(3) تيسير الكريم الرحمن وتفسير كلام المنان (تفسير السعدي). تحقيق. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص102 - مجلة البيان - دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - 1416هـ-1996م.

إذًا فالمنهج القرآني ينطق بالمساواة في أداء الحقوق والواجبات بين الزوجين، دون تفضيل أحد على أحد أو رفع هامة على أخرى، ولكن المشكلة في واقعنا المعاصر أنك تشعر أن بعض البيوت المسلمة تقوم بتطبيق وتفعيل (مبدأ الانتظار) بديلا عن تفعيل (مبدأ المعاشرة بالمعروف)، وليته انتظار الإحسان والمعروف ولكنه انتظار وقوع أقل الهفوات والعثرات والزَّلات، فالحذر كل الحذر أن يصدر من المرأة شيئًا ولو أن تقوم بكسر كوب من الزُّجاج، والحذر كل الحذر أن تشتهي الزوجة شيئًا ولو على سبيل التمنِّي، إضافة إلى استهانة كل منهما بعمل الآخر وتقليص دوره في الحياة فيحدث الصدام والصراع فتظهر المشاكل الزوجيَّة.